فك المال المفترس

يوريس لويندايك
Joris Luyendijk

السباحة مع أسماك القرش
Swimming with Sharks

رحلتي في عالم المصرفيين

My Journey into the World of the Bankers

Guardian Faber, London, 2015, 288 pp., £12.99 (paper

يتسم الواقع بالتعقيد، وقد يحار العقل في الإحاطة به. وعادة ما تحتاج الأحداث إلى شرح، إلى مصدر سببي. ومن السهل فهم مناشئ الزلازل وغيرها من الكوارث الطبيعية على مستوىً معين: فهي تحدث فحسب، دون تدخُّل من أي أيد بشرية. أما الأحداث الاجتماعية والاقتصادية فيكون فهمها أو قبولها في كثير من الأحيان أصعب، فهي لا تحدث فحسب. ويجنح العقل البشري إلى التماس نماذج «المسبب والمفعول»، مما قد يثير نظريات المؤامرة التي تؤدي إلى أقاويل من قبيل الهبوط على القمر خدعة وظاهرة الاحترار العالمي من نسج خيال اليسار الليبرالي والجشع والتواطؤ فيما بين المصرفيين غير أولي الضمير مبعث الأزمة المالية في الفترة ٢٠٠٨–٢٠٠٩.

فكيف يتجاوز صحفيو التحقيقات إذاً الإجابات السهلة؟ لك أن تسأل عن ذلك الأمر أصحابَه. كن متواضعاً، وابدأ بطرح أبسط الأسئلة، وحاول أن تصل إلى أكبر عدد ممكن من الفاعلين. وهذا هو المسعى الذي اجتهد فيه يوريس لوينداك عندما دعته الغارديان في عام ٢٠١١ إلى التدوين الإلكتروني حول «فهم القطاع المالي». وبعد العديد من المنشورات الإلكترونية والمقابلات مع ما يزيد على ٢٠٠ موظف في مصارف استثمارية وتجارية كبرى وصناديق تحوط وجهات رقابة مالية وغير ذلك، رأى النور كتابه «السباحة مع أسماك القرش». وكان مأرب المؤلف اكتشاف مواطن الخلل التي أدت إلى أزمة ٢٠٠٨ والوقوف على احتمالات تكرر حدوث أزمات أخرى من نفس النوع. وقد استأنس في عمله التحقيقي بممارسات علماء الأنثروبولوجيا، بما في ذلك إنشاء تصنيف تحليلي يستخدمه لتقسيم من يجري معهم مقابلات إلى فئات ثلاث: مضاربو الواجهة رفيعو المستوى، وموظفو المساندة، ومسؤولو الامتثال وإدارة المخاطر. وقد عكف على دراسة أسلوب تفكير أعضاء قطاع المال عن طريق الاطلاع على مذكرات وتحقيقات صحفية ثم خاض في العمل الميداني، مجتهداً في تجنيب تحليلاته أي أثر لتعاطفه وانحيازاته ومشاعره الخاصة، وهذا مطلب عويص جداً.

أما ما خلص إليه المؤلف فهو كالآتي: لم تتسبب أزمة ٢٠٠٨–٢٠٠٩ المالية عن الآفات المعنوية الشخصية، مثل الجشع، التي يعج المجتمع البشري بها، بل عن حوافز جانحة على مشهد من ثقافة ذكورية تنافسية لا تتوانى عن معاقبة الفشل (المتصور!) بكل سرعة. وقد أعمل افتقاد الأمن الوظيفي النخر في ارتباط الناس بالمؤسسات التي يعملون لديها، وقد يكون ذلك من العوامل التي شجعت على الإسراف في تجشم المخاطر. كما حجمت التغيرات في نمط إدارة المؤسسات المالية الكبيرة من نموذج المستثمر–المالك (الذي ظل منتشراً على نطاق واسع حتى الثمانينات) إلى نموذج رأس المال المفتوح من قدرة المساهمين على رصد الإقدام على المخاطر، وزادت من مشهيات الإقبال على المجازفات الشديدة. وأنشأت شركات مالية ضخمة ومعقدة مؤسسات «أكبر من أن تفشل» لا تلمس المخاطر الاجتماعية لتصرفاتها.

والكتاب مليء بالشواهد الاستدلالية الجيدة التي يفند بعضها ما يُتوهم من إمكانية منع تضارب المصالح في مؤسسات القطاع المالي باستخدام اتفاقات حماية المعلومات، حيث إن تلك الاتفاقات بين مصرفيين استثماريين يعكفون على إعداد منتجات مالية جديدة ومن يروجون لتلك المنتجات والمحللين المصرفيين الذين يسدون المشورة لعملائهم بشأن جودة تلك الأصول لم تحُترم. كذلك التزمت وكالات التصنيف جانب اللين بشأن المخاطر المقترنة بمنتجات مشتقات معقدة، وربما كان ذلك من باب العرفان لأصحاب الأصول التي تصنفها الذين تقاضت منهم أموالاً. ويذكر المؤلف أن اتفاقات حماية المعلومات في معظم شركات القطاع المالي لها من المصداقية ما كان «للغارديان أن تتمتع به لو اشتراها حزب سياسي في إنجلترا». ولإكمال مشهد الحوافز الجانحة

مأرب المؤلف: اكتشاف مواطن الخلل التي أدت إلى أزمة ٢٠٠٨

في المعسكر المالي، اقتصر دور المراقبين وموظفي المساندة على التزيين المحض مع زيادة التعقيد في المنتجات المالية، كما حالت ثقافة «كل واشرب وامرح ولا تُظهر أي ضعف» السائدة في القطاع دون تكوُّن كتلة حرجة من المبلغين عن المخالفات.

ويسوق المؤلف حججاً قوية ضد مزاعم تسبب الأزمة المالية الكبرى في ٢٠٠٨–٢٠٠٩ عن مؤامرة منظمة وجيدة التنسيق فيما بين مصرفيين سمان من مدخني السيجار. (غير أنه لا يعفي مجموعة فرعية من فاعلي القطاع المالي الماكرين الذين يسميهم «السمك البارد» في تسلسل قصصي مسلٍّ يشير فيه إلى كل فئة من الفاعلين في الميدان المالي باسم حركي يميزه). وبعد جولة أنثروبولوجية مستفيضة في أرجاء مدينة لندن، يرسم المؤلف صورة مستقبلية قاتمة: لم يتغير شيء. فلا تزال عندنا الثقافة التنافسية (وما تتسم به من غياب شبه تام لمراعاة إدارة المخاطر، بما في ذلك ما كان من خلال إحباط موظفي المساندة وطائفة المضاربين الخارقين الناجحين «أسياد الكون») والمؤسسات «الأكبر من أن تفشل» وكل ما تمخضت عنه الأزمة الكبرى. ويختم الكاتب الكتاب بتصوير من وعينا بمخاطر أزمة أخرى وكأنه «قمرة قيادة خاوية». ويترك الكتاب عند القارئ انطباعاً بأن التغييرات التنظيمية والرقابية الحالية ما هي إلا كخوذة على رأس راكب في هذه الطائرة متزايدة العجلة، حيث سيكون الاستباق على العدد القليل المتاح من مظلات الهبوط شديداً إذا جاءت الأزمة التالية.

مارسيلو استيفياو
نائب رئيس شعبة، إدارة نصف الكرة الغربي في صندوق النقد الدولي

شباب ولا يزالون مضطربين

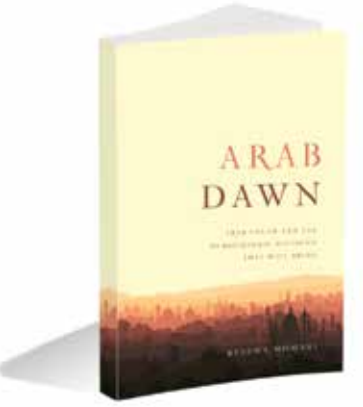

بسمة موماني
Bessma Momani

الفجر العربي
Arab Dawn

شباب العرب وما سيجلبونه من مكاسب ديمغرافية

Arab Youth and the Demographic Dividend They Will Bring

University of Toronto Press, 2015, 176 pp., $21.95 (paper).

من الممكن جداً أن يؤدي كتاب بسمة موماني «الفجر العربي» الدور الشافي الذي أرادته لأولئك القراء الذين التقطوا قليلاً من المعلومات عن المنطقة العربية وشبابها فيما بين دورة أخبار «الربيع العربي يشعل الشارع العربي» ودورة أخبار «داعش تعيد القرن الثاني عشر».

وأما لمن لديهم دراية أدق بالمنطقة وديموغرافيات شبابها، فإن كتاب موماني يمثل إضافة خفيفة إلى مجموعة المؤلفات الضئيلة التي تدور حول آفاق المستقبل لشباب العرب، ومنها كتاب كريستوفر شرويدر انتفاضة الشركات الجديدة *Startup Rising* (2013) وكتاب جيل ينتظر *Generation in Waiting* (2009) لطارق يوسف. أما الأول فيرسم صوراً تعبيرية أكثر ثراءً وإلهاماً لرواد أعمال يصارعون مشاكل المنطقة لبناء التغيير الذي يرنون إلى تحققه في مجتمعاتهم، بينما يضم الثاني توصيات سياساتية أكثر عمقاً وفائدة للتصدي لتحديات التنمية الاقتصادية في المنطقة.

إلا أن ما يفتقر إليه كتاب موماني من حيث العمق تجبره إحصائيات جديدة وشواهد قصصية عن شباب المنطقة. وقد يفاجأ بعض القراء بأن الشباب الذين نزلوا إلى الشوارع لا يزالون متحرقين إلى التغيير على الرغم من دورات الأخبار السلبية. ومازالت السعوديات اللاتي يرفعن إلى يوتيوب تسجيلات مصورة تبينهن وهن يقدن سياراتهن الخاصة في طرقات الرياض، والإعلامي المصري الذي يكشف حالات النفاق الثقافي في حلقات كاميرا خفية يواصلون نضالهم، وإن كانت أخبارهم لا تصل إلى صفحات الجرائد الأولى في الغرب.

وليست هذه القصص بنفس قوة قصص أولئك المتظاهرين الذين يطيحون بالديكتاتوريين، لكنها ربما تحدث أثراً أقوى في ضوء الوقع السريع الذي يتحقق به الإصلاح السياسي الذي شهدناه في معظم البلدان الخارجة من ثورات.

وفيما يتعلق بالجانب الديني، تستحق موماني الثناء على تجنبها استخدام الإحصائيات لتبين لنا أن العلمانية أو الاعتدال أقوى عند الشباب العربي مقارنة بالأجيال الأقدم، بل تنقل الصورة كما هي: هي معقدة. صحيح أن ٣٥٪ من رواد الأعمال نساء و٨٠٪ من الرجال يرون أنه ينبغي تمكين المرأة من العمل خارج بيتها، لكن ٩٤٪ من النساء في مصر يغطين شعورهن، وهذه النسبة ضعف ما كان عليه جيل أمهاتهن.

وحري بالكاتبة أن تحذف بعض الاستقصاءات واستطلاعات الرأي التي استشهدت بها في الكتاب قبل إطلاق زر «أعجبني» في فيسبوك عام ٢٠٠٩. وبشكل أكثر جدية، فقد أثر متوسط الساعات الثلاث التي يقضيها الشباب العربي يومياً على شبكات التواصل الاجتماعي في رؤيتهم للعالم ومكانهم فيه — حتى ولو كانوا جالسين في حي تعيس في القاهرة أو طرابلس أو عمان. وقد يكون هذا أول جيل يعتنق أفكاراً ومواقف حديثة نتيجة للتفاعل مع الثقافة العالمية عبر الإنترنت، مما يمثل تحديثاً صاعداً من القاعدة مستقلاً عن التقدم الاقتصادي أو الإصلاح الذي تقود مسيرته الحكومة.

ورغم ترك موماني ردود فعل هؤلاء الشباب المتواصلين عالمياً لمشكلة البطالة المتزايدة دون معالجة، فإنها تطلعنا على الحقيقة المفزعة: سيلزم إتاحة ١٠٠ مليون وظيفة إضافية بحلول عام ٢٠٣٠. ومع ذلك، تبدو توصياتها بشأن السياسة الاقتصادية منعزلة عن مقومات الواقع الحالي. وتضيف موماني أن عمل الحكومة على تهيئة المزيد من الوظائف في قطاعات المال والبنية التحتية والضيافة في القطاع الخاص ببساطة لا يكفي، وذلك لسببين أولهما أن النمو الاقتصادي في المنطقة لن يدعم النمو اللازم في عدد الوظائف، بل إن المائة مليون وظيفة المطلوبة لعام ٢٠٣٠ لا تكفي إلا للحفاظ على مستويات التوظيف الحالية — تبلغ البطالة حاليا ٢٨٪ بين الشباب العربي و٤٣٪ من النساء العربيات، وهذا يمثل ضعف المتوسط العالمي، على حد قول صندوق النقد العربي. ومع هبوط أسعار النفط بما يزيد على ٥٠٪ خلال العام الماضي وندرة الخبراء الذين يتوقعون عودة إلى سعر ١٠٠ دولار للبرميل، فمن المستبعد

الشباب لا يزالون متحرقين إلى التغيير

أن تساهم اقتصادات مجلس التعاون الخليجي في حل مشكلة البطالة هذه. وقد أفضت ويلات الحروب في سوريا وليبيا واليمن إلى وجود جيل ضائع في تلك البلدان، حيث قال مسعود أحمد من صندوق النقد الدولي إن عودة سوريا إلى مستويات الدخل الذي كان يتحقق لها قبل الحرب يقتضي نموا سنويا بنسبة ٣٪ لمدة عشرين سنة.

وأما السبب الثاني فهو التغير في طبيعة العمل ذاته وفي المهارات التي تحظى بتقدير الاقتصادات. وستؤدي ثورة الذكاء الاصطناعي الوشيكة إلى تفويت ركب العمل على كثيرين في كل مكان، لا في العالم النامي فقط.

وينطوي الكتاب على بذرة تفاؤل، وإن كانت المؤلفة لا تكشف عنها. فالعالم العربي منبع للإبداع، حيث يمكن تصنيف واحد من كل خمسة عرب على أنه مهني مبدع، كما ترتفع قيمة المهارات التي يتمتعون بها. وستتفوق الآلة على البشر في جميع المناحي تقريباً خلال المدة العمرية للشباب الذين ترسم موماني صورهم، مما يتضمن بناء آلات جديدة من معدات وبرمجيات.

لكن المجال الذي لن تلحق الآلات بركبنا فيه بسهولة هو الإبداع والمشاركة الوجدانية والقدرة على مد الأواصر الإنسانية. وهذه هي ثروة الشباب العربي، وهذا هو مظنة الأمل.

مي حبيب
الرئيس التنفيذي والمؤسسة المشارك لقرطبة، وهي منصة *SaaS* مؤسسية لعولمة المحتوى الرقمي.